أثر الاتصال الحضاري
في نمو المعيار العلمي لحركة البحث العلمي
في الجامعات العربية

د. عز الدين حسين أبو الشمس

أهمية البحث:

يريد المرء حقيقة مسلَّمًا بها إذا ما قال بوجود عضوية غير قابلة للانفصام من الناحية العلمية بين الاتصال الحضاري، وبين المستوى العلمي لأي جامعة من جامعات العالم، ذلك لأن الاتصال الحضاري في واقعه وجه من أهم أوجه الحياة الفكرية والعلمية للجامعة، وهو بهذا يكون انعكاسا للوضع العلمي من حيث حدوده ومظاهره، ومن حيث مفاهيمه واتجاهاته العامة فيها.

إذن هناك جانب هام يتعلق بسياسات الجامعات ألا وهو الاتصال الحضاري، أيْ مشاركة أعضاء هيئة التدريس في المؤتمرات، والحلقات

العلمية، والندوات الفكرية، وإلقاء المحاضرات، وتبادل العلماء والخبراء، حيث إن هذه اللقاءات بين الكوادر العلمية تمثّل مجالا واقعا لتبادل الآراء، ولعرض نتائج البحوث ومناقشة تطوراتها، كما تمثّل عملا ذا فاعلية وكفاءة يتحقق من خلالها تعريف العالم بعوامل النهضة العلمية والاجتماعية والاقتصادية، التي يشهدها مجتمعنا، وإسهامات أمتنا بما تمتلك من عناصر حضارية أصيلة في دفع مجلة المعرفة الإنسانية.

إن اتصال عضو هيئة التدريس بأبناء مهنته وتخصصه واهتماماته في بلده وفي العالم، من شأنه أن يخدم رسالة الجامعة جلّ خدمة، إذ يرفع من المستوى العلمي والمهني لعضو هيئة التدريس، مما يعود بالنفع على جامعته، ويرفع من سمعتها، كما يضاعف من قدراته على تخطي الحدود التقليدية، ويفتح أمامه ميادين جديدة يستطيع من خلالها أن يشكّل شخصيته العلمية فكرًا وأداءً.

إن العلماء والباحثين الذين ينعزلون في مجتمعاتهم العلمية المصغّرة في أوضاعهم يدورون في حلقة مفرغة في كثير من الأحيان، حقيقة قد يحرزون بعض التقدم، وقد يتوصلون لبعض الاكتشافات الجديدة، أو التطبيقات المستحدثة، لكن هذه الأمور تظل محلّية الصبغة، بعيدة عن التجريب العلمي العالمي، وبعيدة عن النقد الذي يراها البعيد، والذي قد يكون مفيدًا جدًّا لها ولنموّها وتعميقها.

الإطار النظري:

لقد أصبح العلم الحديث عالمي النَّزْعة، وإن كان يبدو أحيانا محلّي التطبيق. إن الحدث الذي توصّل إليه باحث من جامعة كاليفورنيا، وقاله في

مؤتمر علمي عُقِد في جامعة «باث» يتلقفه عدد من الباحثين والمفكرين والأساتذة من مختلف جامعات العالم، فيُعْمِلُون فيه فكرهم، ويضيفون إليه من رصيد خبراتهم، فإذا هو يكبر وتتفرع جوانبه وتتعدد، وإذا بهؤلاء العلماء والباحثين يلتقون مرة ثانية في مؤتمر ثان، وقد أصبح الحدث العلمي عملاً كبيرًا اشتغل فيه الكثيرون، ووضعوه موضع التجريب أو التنفيذ.

ومنا هنا نرى أن الاتصال الحضاري يكتسب أهمية خاصة؛ لأنه يحمل بين طياته أفكار العلماء والباحثين وتجاربهم على مستوى العالم، كما أنه يساعد على إخراج العلم من حدوده الإقليمية الضيّقة.

إن التفوّق العلمي لا يأتي جزافا، والتقدم لا يكون محصلة الأمنيات والأحلام، لذلك تحتاج القدرات إلى تنشيط وتتويج، والقرائح تحتاج إلى إقدام واشتعال، لو أدّركنا ذلك فهمنا سر تقدم الأمم أو تخلفها، ومدة التقدم أو التخلف مرهونة بالعمل ذلك، وباستعراض طاحونة التاريخ لدورة كاملة يلقي الضوء على إمكان التقدم والتخلف، ويكشف التنافس فيها، وباستعراض الخطط العلمية للمؤسسات العلمية ومختلف الجامعات على حدٍّ سواء تلمس تشابها وتقاربًا في الطموح، ويضع المرء يده على برامج تكون متشابهة، ومؤسسات علمية تحمل نفس الأسماء، وربما كانت الهياكل التنظيمية واحدة أو متقاربة، ولكن البَوْن شاسع بين ما تحرثه الجامعات الرصينة وما تحرث به، وما تقوم به الجامعات الأخرى.

لماذا تبدع جامعات، ولا يُتاح لجامعات أخرى فرصة الإبداع ؟ لماذا تتقدم بعض الجامعات كَمًّا وتتخلف نوعًا ؟ لماذا لا يتسقُ التقدم العلميُّ في بعض الجامعات مع مسيرة التقدم العلميّ المعاصر، مع توفّر الإمكانات ؟

ينبغي أن تستوقفنا هذه الأسئلة، ونتلمس الحقيقة لآثارها، لتحقيق الاتصال والتفاعل بين متغيراتها، وكيفية استثمار تفكيرنا للإجابة عنها.

وفي ضوء معايير علمية، فقد وجدنا أن من بين الإجابات والمعالجات المُلحّة، التي تستحق السبق لهذه الأسئلة، يتركز حول ضرورة اهتمام الجامعات والمؤسسات العلمية على توسيع رقعة اطلاعها على تجارب وخبرات الآخرين، والاستفادة منها، مما يوفر لها فرصة لتجاوز الهوّة، وتهيّء نفسها لدور جديد يتّسم بالانفلات من المنهج التقليدي، وبتثبيت أولويات البدء الصحيح، والاستراتيجية الدقيقة التي يكفل معها النجاح والإبداع لجامعاتنا في إعداد الإنسان الذي نطمح إليه، فالإنسان هو نقطة البدء، وهو الهدف والغاية، والطالب المتميّز هو الأمل الجديد، والجامعة هي الطريق، والأستاذ الجامعي هو الوسيلة.

وإذا ما أدركت الجامعات والمؤسسات العلمية ما ذهبنا إليه من أن الاتصال الحضاري يمثّل واقعًا استراتيجيًّا بالغ الأهمية، تبقى قضية أساسية أيضًا ما زالت في حاجة إلى دراسة ومناقشة.

ونقول في هذا الصدد، ولا نريد بالطبع أن نقلب المواجع، ولكننا هنا قد نثير سؤالا نعتقد بأهمية الإجابة عليه، وانعكاس ذلك على الدور العلمي لأعضاء هيئة التدريس الجامعي، هو:

- هل كان حضور بعض الزملاء المؤتمرات، والندوات، والحلقات العلمية فرصة طيّبة للاحتكاك العلمي مع نظرائهم ؟ وهل كان فرصة للإعلام بين جامعات العالم من حركة العالم في جامعاتنا ؟

وحتى لا نظلم عددًا من الباحثين والأساتذة الذين لهم إسهاماتهم التي

لا تُنكَر في مثل هذه المؤتمرات، فإن الواقع يقول — ومعذرة للصراحة التي هي أوجب من تكون من أمور العلم —: إن عددًا لا بأس به ممن يوفَدُون لممارسة هذا النشاط العلمي يكون حضورهم لمجرد الاستماع فقط، ولم يقدّموا بحوثًا، واكتفوا بورقة خطة البحث التي خوّلتهم المشاركة، هذا إذا علمنا أن السمعة العلمية للجامعات تكتسب من خلال نشاطات هيئات التدريس بها في مثل هذه اللقاءات العلمية.

وتأسيسًا على هذا، يكون الاتصال العلمي بهذا النوع من النشاطات حالة ترفيه، أي أنه أصبح ترفًا لا ضرورة له، وينبغي التوقف عنده وإعادة النظر فيه.

أما إذا كانت المشاركة للعضو المشارك تمثل الوضوح والفصل والجديّة، ويعود إلى جامعته بحصيلته العلمية كي يضعها أمام زملائه في جلسة علمية، بحيث لا تظل حبيسة عقل واحد، ليتسنى تعميمها خارج الجامعة، ليستفيد منها المجتمع ذاته فهنا تكون وظيفة الاتصال الحضاري ضرورة ملحّة، وممارسة تعمل على تنشيط العقل، ونموّه العلمي والفكري، بجامعاتنا ومؤسساتنا العلمية.

الاستنتاجات:

يجدر أن نُنوِّه عند هذا الحد أنه بالرغم من أن مفهوم الاتصال الحضاري مفهوم شائع في جميع جامعات العالم، فإن أبعاده تختلف وفقًا للموقع الحضاري والعلمي لكل جامعة، ومع أن جامعاتنا في المرحلة الحالية في مستوى واحد، من حيث أخذها بمفهوم التنمية العلمية، وبهذا فإن موقفها من جامعات العالم يحتم عليها الإسراع في عمليات التنمية العلمية

والثقافية، باعتبارها محاولة متطورة، من أجل تحقيق واقع علميٍّ وثقافي متطوّر، ولتحقيق ذلك لا بدّ أن نتّكئ على الاستنتاجات التي توصّل إليها البحث، وهي:

1. إذا كانت جامعاتنا تسعى في برامجها الإفادة من كل تقدم علميٍّ وتكنولوجي، بل تسعى أيضًا نحو مزيد من التقدم العلمي، فإنها بحاجة إلى استيعاب هذا التقدم كأساس هامٍّ لا بدّ منه في العالم المعاصر، وعليه ينبغي أن نقف على اعتبار هذه الثورة العلمية من خلال الاتصال الحضاري المتمثل بتوسيع رقعة الإيفاد لكوادرها، والنظر إليه ضرورة علاجية لمحتواها وهيكلها.
2. حقًّا إن في مفاصل جامعاتنا ومؤسساتنا العلمية الكثير من العوامل الإيجابية، التي تدفع نحو التقدم، ولكن في نفس الوقت ما زالت تعاني من بعض النقاط التي تحتاج إلى نوع من المعالجة، والتي يمكن أن تعوّض أو تبطئ على الأقل حركة الجامعة نحو العصرنة، وعليه فإننا نخطئ كثيرًا لو تصوّرنا أنه في الإمكان إحداث حركة علمية متطورة دون بذل جهد حقيقي من جامعاتنا في تطوير وتوسيع دائرتها العلمية والثقافية، عمّا تتضمنه من قيم واتجاهات وعادات علمية، من خلال الاطلاع على التراكم المعرفي في العالم.

كما أن أية محاولة لصياغة سياسة علمية متينة لجامعاتنا لن تتحقق ما لم تمزج في هذه الصياغة إيجابيات تراثنا الثقافي، والحلقات العلمية التي وصلنا إليها مع الحلقات المتطورة العصرية المرغوبة.

3. إن الحركة العلمية في أية جامعة أو مؤسسة علمية، هي حركة

مستمرة متصاعدة، لا تتوقف عند حدود معيّنة، ولذلك فإن الحديث عن الاتصال الحضاري لا يهدف إلى التقدم بمقترحات وقتية، بل يدخل في فلسفة التعليم العالي ومحتواه، ويرسم خطًا استراتيجيا له، ويضمن استمرار الجامعة وارتباطها بما يدور في العالم من تطوّر في جميع مجالات العلم وتقنياته.

4. إن الافتقار للاتصال الحضاري يحمل في طياته كثيرًا من المزالق، ويجعل الجامعة، أو أي مؤسسة علمية، تجري وراء سراب، لا يمكن تحقيق تعليم واعٍ مقصور في فراغ، فالتعليم الجامعي في حدِّ ذاته قوة اجتماعية دافعة لعجلة النشاط العلمي بين جامعاتنا ومختلف الجامعات المنتشرة في العالم.

التوصيات:

وصفوة القول الذي يجب أن نسلِّمَ به هنا أن الإهمال في تنشيط عملية الاتصال الحضاري، يعني عدم القدرة على إحداث تغييرات علمية وثقافية عميقة، كما يعني عدم القدرة على الانتقال إلى مجتمع عصري يأخذ بأسباب العلم الحديث المادية والفكرية، كما يعني عدم القدرة على تطوير أساليب المؤسسات العلمية على أساس قاعدة علمية وثقافية واعية، تعمل بصورة مقصودة على نشر الفكر العلمي في ضوء واقع العصرنة.

وفي ضوء هذا التحليل لنتائج البحث نستطيع أن نقرر أن العلاقة بين المؤسسات العلمية وبين الاتصال الحضاري ليست علاقة تبعية واحدة منها للأخرى، وليست علاقة استاتيكية، بل هي علاقة ديكتيكية دينامية، فالمؤسسة العلمية التي تريد أن توجّه نشاطها وبرامجها لتلبية مخططات التنمية

من الطاقات الإنسانية، فإن ذلك لن يتحقق دون الاتصال الحضاري، الذي يساعد في نموّ وتعبئة كوادر المؤسسة، للاستجابة لمطالب التطوّر والنموّ، ويفتح أمامها آفاق المستقبل، للوصول إلى ابتكارات جديدة أصيلة.

وفي ضوء هذا التصوّر العام يمكن أن نتوصل إلى الاستنتاجات الآتية:

1. توجيه العناية لجعل نشاط الاتصال الحضاري جزءاً أساسيًّا في استراتيجيات المؤسسات العلمية، كي يرتبط كادرها العلميّ ارتباطًا عضويًّا بالبرنامج الكلّي للمعرفة العلمية.

إن ممارسة الاتصال الحضاري باعتباره وسيلة لتحقيق التنمية العلمية والفكرية والثقافية ليس بالهدف السهل التطبيق، وإنما يحتاج إلى فلسفة وتخطيط وتنفيذ، وترجمة هذا أننا إذا أردنا أن نجعل النشاط الاتصال الحضاري فعّالاً ومستمرًّا، لا بد أن يكون متسمًا بالعمق من حيث الاختصاصات الملحة والشمولية في نفس الوقت.

أنه يجب أن يكون جذريا وليس سطحيًّا، وأن يدخل ضمن الحلقات الأساسية للمؤسسة العلمية وأهدافها ومحتواها، وكذلك تقويمها.

2. تحديد الأولويات، وترشيح من ينبغي أن يكون عنصرًا مؤثّرًا ي تطبيقات العلم واستخدام نتائجه، ويستطيع المطابقة بين الأساليب التكنولوجية والتغيّر السلوكي العلمي المطلوب.

3. تطوير نشاط الاتصال الحضاري، ليشمل الكوادر الوسطى العاملة في المؤسسات العلمية والجامعات، في مناهجها وإعدادها، والمشاركة في برامج التدريب العلمية خارج الوطن، بحيث تتناسب

التقنيات الحديثة وأساليب العمل المعاصرة.

4. لعل اتجاه بعض الكوادر العلمية نحو الهجرة إلى بعض البلدان تُعَدّ من القضايا المهمة، وبالرغم من أن هذه الوظيفة لها أبعاد متعددة، إلا أنها تكشف أيضا عن مدى حاجتنا إلى إشاعة برامج في مؤسساتنا العلمية وجامعاتنا تناسب كوادر علمية لا يكتفون بالسلوك التعليمي وفقًا لما هو سائد، بل قادرون على التجديد والتطوير، وفتح مجالات جديدة من ناحية، وعناصر تَعِي دورها القومي والوطني من ناحية أخرى.

5. وضع الرؤية الصحيحة لمكونات العملية العلمية بكل أنواعها من قبل المؤسسات العلمية، ومن بينها الجامعات؛ رؤية بعيدة عن الزينة والديكور، وإنما تغوص في أعماق العلمية لتفجير الطاقات، وتجنّب الإهدار، وتأمين فرص الاستمرار لهذا النوع من الفاعلية العلمية، إعداد الكوادر العلمية والفنية من الباحثين والأساتذة إعدادًا محكمًا، لا تنفيس فيه ولا تضليل.

6. عدم الموافقة على أن يكرر الباحثين والأساتذة الأجانب الزائرين أو المشاركين في مؤتمراتنا بحوثًا سبق أن أُجرِيَت في بلادهم وتَمَّ نشرها، كذلك أودّ أن أؤكد مرة ثانية على نوعية بحوثنا، وعلى مدى علاقتها بالمجتمع، فليست العبرة فقط في إعداد البحوث والمشاركة فيها في المؤتمرات، والحلقات العلمية، وإنما هي في كيفيتها وامتيازها، وفي مدى ارتباطها بحاجات المجتمع ومشكلاته، ومحاولاته الاستجابة لكل ذلك.

إذًا يتضح من خلال العرض الذي سقناه أن وظيفة الاتصال الحضاري هي وظيفة ضرورية، وليست حالة ترفيه، كما أن من الأمور التي لها دلالاتها أن الاتصال الحضاري ضرورة ليس فقط لكوادر المؤسسات العلمية والجامعات، في كونه يعمل على تنشيط عقولهم ونموّهم العلمي والفكري، ولكنه ضرورة بنفس القدر أو بدرجة أكبر للمجتمع، ذلك أن المعرفة العلمية بعامة، والتطبيقية منها بخاصة، التي استوعبها الباحث العلمي أو الأستاذ الجامعي قد تكون مدخلاً مهمًّا لزيادة معدلات النموّ الاقتصادي الاجتماعي.

ولهذا كله كان على المؤسسات العلمية — ومن بينها الجامعات — مسؤولية ملحّة وعاجلة لمجتمعنا، وهذه المسؤوليات تتعلق بمستقبل وطننا وحاجات التنمية فيه، فمجتمعنا لا يتحمّل ترف البعد عن العلم الجاد، والاهتمام بأولوياته، إنه يطالب بالزيادة الحثيثة لمعدلات النموّ العلمي؛ لأنه السبيل في توليد شرارة المعرفة، وها هي تدفع بحركة المجتمع نحو نهضة علمية وفكرية مؤثرة.